

مَعْنَى ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾

وَلَيْسَ كُلُّ عَمَلٍ يَتَقَرَّبُ الْعَبْدُ بِهِ إِلَى اللَّهِ يَكُونُ مُتَقَبَّلًا، بَلِ الْمَتَقَبَّلُ مِنَ الْعَمَلِ هُوَ (الصَّالِحُ) فَقَطْ، وَ(الصَّالِحُ) هُوَ مَا كَانَ لِلَّهِ وَحْدَهُ وَعَلَى هَدْيِ وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ وَهَذَا قَالَ تَعَالَى: {الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا} (الْمَلِكُ / ٢).

فَلِكَيْ يَكُونَ (الْعَمَلُ) مُقْبُولًا عِنْدَ اللَّهِ؛ يُشْتَرَطُ فِيهِ الْإِخْلَاصُ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَالْمُتَابَعَةُ لِلرَّسُولِ الْكَرِيمِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فَهُمَا - الْإِخْلَاصُ، وَالْمُتَابَعَةُ - شَرْطَا قَبُولِ الْأَعْمَالِ كُلِّهَا؛ فَلَا قَبُولَ لِأَيِّ عَمَلٍ مِنَ الْأَعْمَالِ إِلَّا بِهِمَا.

قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ (التَّهْفُوتُ / ١١٠): «وَهَذَانِ رُكْنَا الْعَمَلِ الْمَتَقَبَّلِ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ: خَالِصًا لِلَّهِ، صَوَابًا عَلَى شَرِيعةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ».

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي الْفَوَائِدِ (ص ٦٧): «العمل بغير إخلاص ولا اقتداء كالمسافر يملأ جرابه رملا ينقله ولا ينفعه».

عَنْ إِبْرَاهِيمَ بْنِ الْأَشْعَثِ؛ ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ (هُودُ / ٧) قَالَ: (١) «أَخْلَصُهُ وَأَصَوَّبُهُ، قَالَ: «إِنَّ الْعَمَلَ إِذَا كَانَ خَالِصًا وَلَمْ يَكُنْ صَوَابًا لَمْ يُقْبَلْ، وَإِذَا كَانَ صَوَابًا وَلَمْ يَكُنْ خَالِصًا لَمْ يُقْبَلْ حَتَّى يَكُونَ خَالِصًا صَوَابًا، وَالْخَالِصُ إِذَا كَانَ لِلَّهِ، وَالصَّوَابُ: إِذَا كَانَ عَلَى السُّنَّةِ».

(١) رَوَاهُ ابْنُ أَبِي الدُّنْيَا فِي كِتَابِهِ "الْإِخْلَاصُ وَالنِّيَّةُ" (ص ٥٠ - ٥١).

قَالَ الْفُضَيْلُ بْنُ عِيَاضٍ فِي مَعْنَى الْآيَةِ: (١) «أَيُّ: أَخْلَصَهُ وَأَصَوَّبَهُ». قِيلَ: يَا أَبَا عَلِيٍّ! وَمَا أَخْلَصَهُ وَأَصَوَّبَهُ قَالَ: «إِنَّ الْعَمَلَ إِذَا كَانَ خَالِصًا وَلَمْ يَكُنْ صَوَابًا لَمْ يُقْبَلْ، وَإِذَا كَانَ صَوَابًا وَلَمْ يَكُنْ خَالِصًا لَمْ يُقْبَلْ؛ حَتَّى يَكُونَ خَالِصًا صَوَابًا، وَالْخَالِصُ أَنْ يَكُونَ لِلَّهِ، وَالصَّوَابُ أَنْ يَكُونَ عَلَى السُّنَّةِ».

وَالْأَحَادِيثُ فِي هَذَا الْبَابِ كَثِيرَةٌ؛ مِنْهَا:

وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (٢) «نَصَرَ اللَّهُ عَبْدًا سَمِعَ مَقَالَتِي هَذِهِ فَحَمَلَهَا، فَرَبَّ حَامِلِ الْفِقْهِ فِيهِ عَيْرٌ فَقِيهِ، وَرَبَّ حَامِلِ الْفِقْهِ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ. ثَلَاثٌ لَا يُغْلُّ عَلَيْهِنَّ صَدْرُ مُسْلِمٍ: إِخْلَاصُ الْعَمَلِ لِلَّهِ، وَمُنَاصَحَةُ أَوْلِي الْأَمْرِ، وَلُزُومُ جَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ، فَإِنَّ دَعْوَتَهُمْ مُحِيطٌ مِنْ وَرَائِهِمْ».

وَعَنِ الضَّحَّاكِ بْنِ قَيْسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (٣) «إِنَّ اللَّهَ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - يَقُولُ: أَنَا خَيْرُ شَرِيكَ، فَمَنْ أَشْرَكَ مَعِي شَرِيكًا فَهُوَ لِشَرِيكِي. يَا أَيُّهَا النَّاسُ، أَخْلِصُوا أَعْمَالَكُمْ لِلَّهِ؛ فَإِنَّ اللَّهَ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - لَا يَقْبَلُ مِنَ الْأَعْمَالِ إِلَّا مَا خَلَصَ لَهُ، وَلَا تَقُولُوا: هَذَا لِلَّهِ وَلِلرَّحِمِ؛ فَإِنَّهَا لِلرَّحِمِ وَلَيْسَ لِلَّهِ مِنْهَا شَيْءٌ، وَلَا تَقُولُوا: هَذَا لِلَّهِ وَلِوُجُوهِكُمْ؛ فَإِنَّهَا لِوُجُوهِكُمْ وَلَيْسَ لِلَّهِ فِيهَا شَيْءٌ».

(١) رَوَاهُ أَبُو نَعِيمٍ فِي الْحِلْيَةِ (٨/ ٩٥).

(٢) حَدِيثٌ صَحِيحٌ؛ وَرَدَّ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ، وَزَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ، وَأَبِي الدَّرْدَاءِ، وَمُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ، وَالنُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ، وَأَبِي قُرْصَافَةَ، وَجَابِرٍ، وَأَنْسِ بْنِ مَالِكٍ، وَجَبْرِ بْنِ مُطْعِمٍ، وَأَبِي سَعِيدِ الْخَدْرِيِّ.

(٣) رَوَاهُ الْبَزْأَرُ (٤/ ٢١٨ كَشَفَ الْأَسْتَارَ)، وَاللَّدَارِقُطِيُّ فِي سُنَنِهِ (١/ ٥١، ٧٧)، وَالْبَيْهَقِيُّ فِي الشُّعَبِ (٩/ ١٥٩)، وَعَيْرُهُمْ، قَالَ الْهَيْثَمِيُّ فِي الْمَجْمَعِ (١٠/ ٢٢١): "رَوَاهُ الْبَزْأَرُ عَنْ شَيْخِهِ: إِبْرَاهِيمَ بْنِ مَجْشَرٍ، وَثَقَّهُ ابْنُ حَبَّانَ وَعَيْرُهُ، وَفِيهِ ضَعْفٌ، وَبَقِيَّةُ رَجَالِهِ رَجَالُ الصَّحِيحِ". وَقَدْ تَوَبَّعَ إِبْرَاهِيمَ هَذَا؛ تَابَعَهُ سَعِيدُ بْنُ سُلَيْمَانَ الْوَاسِطِيُّ وَهُوَ ثِقَةٌ. وَأَنْظَرُ: الصَّحِيحَةُ (ح ٢٧٦٤).

وَوَرَدَ عَنْهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: (١) «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَا يَقْبَلُ مِنَ الْعَمَلِ إِلَّا مَا كَانَ خَالِصًا وَابْتِغَايَ بِهِ وَجْهَهُ».



إِنَّ (الْعَمَلَ الصَّالِحَ) هُوَ الثَّمَرَةُ الطَّبِيعِيَّةُ (لِلْإِيْمَانِ)، وَالْحَرَكَةُ الذَّاتِيَّةُ الَّتِي تَبْدَأُ فِي ذَاتِ اللَّحْظَةِ الَّتِي تَسْتَقِرُّ فِيهَا حَقِيقَةُ الْإِيْمَانِ فِي الْقَلْبِ. فَ(الْإِيْمَانُ) حَقِيقَةٌ إِجْبَابِيَّةٌ مُتَحَرِّكَةٌ؛ مَا إِنَّ تَسْتَقِرُّ فِي الْقَلْبِ حَتَّى تَسْعَى بِذَاتِهَا إِلَى تَحْقِيقِ ذَاتِهَا فِي الْخَارِجِ فِي صُورَةِ (عَمَلٍ صَالِحٍ).

هَذَا هُوَ (الْإِيْمَانُ) الْإِسْلَامِيُّ .. لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَظَلَّ خَامِدًا لَا يَتَحَرَّكُ، كَمَا نَحْنُ لَا يَتَبَدَّلُ فِي صُورَةٍ حَيَّةٍ خَارِجٍ ذَاتِ الْمُؤْمِنِ .. فَإِنَّ لَمْ يَتَحَرَّكْ هَذِهِ الْحَرَكَةُ الطَّبِيعِيَّةُ فَهُوَ مُزَيَّفٌ أَوْ مَيِّتٌ؛ شَأْنُهُ شَأْنُ الزَّهْرَةِ لَا تُمَسِّكُ أَرْبِجَهَا؛ فَهُوَ يَنْبَعِثُ مِنْهَا أَنْبَعَاثًا طَبِيعِيًّا، وَإِلَّا فَهُوَ غَيْرُ مَوْجُودٍ!

وَمِنْ هُنَا قِيَمَةُ (الْإِيْمَانِ) .. إِنَّهُ حَرَكَةٌ وَعَمَلٌ وَبِنَاءٌ وَتَعْمِيرٌ، يَتَّجِهُ إِلَى اللَّهِ .. إِنَّهُ لَيْسَ أَنْكَاشًا وَسَلْبِيَّةً وَأَنْزِوَاءً فِي مَكُونَاتِ الْإِنْسَانِ، وَلَيْسَ مُجَرَّدَ نَوَايَا طَبِيعِيَّةٍ لَا تَتَمَثَّلُ فِي حَرَكَةٍ، وَهَذِهِ طَبِيعَةُ الْإِسْلَامِ الْبَارِزَةُ الَّتِي تَجْعَلُ مِنْهُ قُوَّةَ بِنَاءٍ كُبْرَى فِي صَمِيمِ الْحَيَاةِ. وَهَذَا مَفْهُومٌ مَا دَامَ (الْإِيْمَانُ) هُوَ الْإِرْتِبَاطُ بِالْمَنْهَجِ الرَّبَّانِيِّ، وَهَذَا الْمَنْهَجُ حَرَكَةٌ دَائِمَةٌ مُتَّصِلَةٌ فِي صَمِيمِ الْوُجُودِ، صَادِرَةٌ عَنْ تَدْبِيرٍ، مُتَّجِهَةٌ إِلَى غَايَةٍ.

وَقِيَادَةٌ (الْإِيْمَانِ) لِلْبَشَرِيَّةِ هِيَ قِيَادَةٌ لِتَحْقِيقِ مَنْهَجِ الْحَرَكَةِ الَّتِي هِيَ طَبِيعَةُ الْوُجُودِ .. الْحَرَكَةُ الْخَيْرَةُ النَّظِيفَةُ الْبَانِيَّةُ الْمَعْمَرَةُ اللَّائِقَةُ بِمَنْهَجِ يَصْدُرُ عَنِ (اللَّهِ).



(١) رَوَاهُ وَالنَّسَائِيُّ (٦/ ٢٥ ح ٣١٤٠)، وَالطَّبْرَانِيُّ (٨/ ١٤٠ ح ٧٦٢٨)، قَالَ الْحَافِظُ فِي الْفَتْحِ (٦/ ٢٨): إِسْنَادُهُ جَيِّدٌ. وَقَالَ الْأَبْنَائِيُّ: حَسَنٌ صَحِيحٌ.

وَلَا بَدَأَ أَنْ يُصَاحِبَ (الْعَمَلَ الصَّالِحَ) خَوْفٌ مِّنَ (اللَّهِ)، وَلَهُ صَوْرٌ عَدِيدَةٌ؛ مِنْهَا:
١. الخَوْفُ مِنْ عَدَمِ قَبُولِ الْعَمَلِ:

عَنْ عَائِشَةَ؛ زَوْجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَتْ: (١) سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ (المؤمنون / ٦٠)؛ قَالَتْ عَائِشَةُ: أَهْمُ الَّذِينَ يَشْرَبُونَ الْخَمْرَ وَيَسْرِقُونَ؟ قَالَ: «لَا، يَا بِنْتَ الصَّدِيقِ! وَلَكِنَّهُمْ الَّذِينَ يَصُومُونَ وَيُصَلُّونَ وَيَتَصَدَّقُونَ، وَهُمْ يَخَافُونَ أَنْ لَا تُقْبَلَ مِنْهُمْ» ﴿أَوْلَيْكَ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَيِّقُونَ﴾ (المؤمنون / ٦١).

٢. الخَوْفُ مِنَ الْإِنْتِكَاسِ وَالْعَوْدَةِ لِلذُّنُوبِ وَالْمَعَاصِي مَرَّةً أُخْرَى:

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿بِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾ (الحجرات / ١١).
أَيُّ: بِئْسَمَا تَبَدَّلْتُمْ عَنِ الْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ بِشَرَائِعِهِ، وَمَا تَقْتَضِيهِ؛ بِالْإِعْرَاضِ عَنِ أَوْامِرِهِ وَنَوَاهِيهِ، بِأَسْمِ الْفُسُوقِ وَالْعَصِيَانِ.

فَالْمُؤْمِنُ يُقْبَحُ مِنْهُ أَنْ يَأْتِيَ بَعْدَ إِيْمَانِهِ بِفُسُوقٍ؛ مِثْلَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ (الأَنْعَامُ / ٨٢)، فَبِئْسَ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ، وَبِئْسَ أَنْ تَسْمُوا بِالْفَاسِقِ بِسَبَبِ هَذِهِ الْأَفْعَالِ بَعْدَ مَا سَمَّيْتُمُوهُمْ مُؤْمِنِينَ.
فَحَتَّى الْأَنْبِيَاءَ يَخَافُونَ مِنَ الْوُقُوعِ فِي الْمَعَاصِي وَيَسْأَلُونَ اللَّهَ أَنْ يُعِدَّهُمْ عَنْهَا؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْ نَبِيِّ إِبْرَاهِيمَ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ ءَامِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ (إِبْرَاهِيمَ / ٣٥).

(١) حَدِيثٌ حَسَنٌ: رَوَاهُ الْحَمِيدِيُّ (ح ٢٧٥)، وَأَخْبَدُ (٦/ ١٥٩، ٢٠٥)، وَالتِّرْمِذِيُّ (ح ٣١٧٥)، وَابْنُ مَاجَةَ (ح ٤١٩٨). وَانظُرْ: الصَّحِيحَةُ لِلْأَلْبَانِيِّ (ح ١٦٢).

وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ: ^(١) «يَا مُقَلَّبَ الْقُلُوبِ! ثَبَّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ». فَقِيلَ لَهُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَمَّا بِكَ وَبِإِجْتِ بِه؛ فَهَلْ تَخَافُ عَلَيْنَا؟ قَالَ: «نَعَمْ، إِنَّ الْقُلُوبَ بَيْنَ أَصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللَّهِ يُقَلِّبُهَا كَيْفَ يَشَاءُ».

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَرْوِي عَنْ رَبِّهِ جَلَّ وَعَلَا قَالَ: ^(٢) «وَعِزَّتِي! لَا أَجْمَعُ عَلَى عَبْدِي خَوْفَيْنِ وَأَمْنَيْنِ؛ إِذَا خَافَنِي فِي الدُّنْيَا أَمَّتَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَإِذَا أَمَّنَنِي فِي الدُّنْيَا أَخَفَّتَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

وَقَالَ اللَّهُ عَنِ الْمَلَائِكَةِ الَّذِينَ هُمْ أَذِلَّةٌ تَحْتَ قَهْرِهِ: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةِ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ ^(٤٩) يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٥٠﴾ (النحل / ٥٠).



(١) حَدِيثٌ حَسَنٌ بِشَوَاهِدِهِ: قَدْ وَرَدَ عَنْ أَكْثَرِ مَنْ صَحَّاحِي: رَوَاهُ أَحْمَدُ، وَالتِّرْمِذِيُّ، وَغَيْرُهُمَا. وَانظُرْ:

«الصَّحِيحَةُ» لِلْأَلْبَانِيِّ (ح ٢٠٩١)، وَصَحِيحُ الْجَامِعِ (ح ٣٠٨١، ٣٠٨٢).

(٢) حَدِيثٌ حَسَنٌ: رَوَاهُ ابْنُ حِبَّانَ (ح ٦٤٠)، وَالبَرَّازُ (١٤ / ٣٤٢)، وَغَيْرُهُمَا. وَانظُرْ: «الصَّحِيحَةُ» لِلْأَلْبَانِيِّ

(٧٤٢) «صَحِيحُ الْجَامِعِ» (ح ٤٣٣٢).